قال – بل انا صادق يا سيدي ، وان شئتَ دليلاً على صدق كلامي فما عليك الا ان تذهب وتفحص الامر بنفسك

فأسرع الملك الى حيث كانت « جير الدينا » لا تزال منطرحة وقد اجتاز الغرفة التي وقفت فيها الملكة والمهرّج فلم يلتفت اليهما

وكانت جير الدينا (او حنة دوغلاس) قد أفاقت من غيبوبتها منذ زمان ولكنها لبثت في مكانها تحرق وجنتيها الدموع وتمزّق صدرها الزفرات وقد تأكدت ان حبيبها قد أُخذ الى السجن وسيُقضى عليه بالاعدام وانها هي التي خدعته وكانت سبب موته ، فعزمت ان تتوسل بكل وسيلة لانقاذه

وكان الملك قد دنا منها وبسط اليها يديه قائلاً بلطف – انهضي ايتها اللادي الشريفة واسمحي لمولاكِ الملك ان يشكر لكِ عنايتكِ وخدمتكِ . ولما كنتُ لحسن حظي ملكاً وفي يدي الثواب والعقاب فانا أستطيع ان أعاقب الخونة واكافئ المخلصين ، وقد عاقبتُ هذه الليلة رجلاً خانني فيجب ان اكافئ ايضاً مَن خدمني بذلك احسن خدمة . انهضي ايتها اللادي فلا يليق بكِ ان تركعي امامي على ركبتيكِ

قالت – بل دعني اجثو على قدميك وأسألك العفو والرحمة . فارحم شقائي يا مولاي وقل لي ماذا تريد ان تفعل بهنري غوفارد ولماذا أرسلتهُ الى التوير ؟

ففهم الملك ما يجول في ذهنها من الافكار ونظر الى اللورد دوغلاس شزراً ثم قال لحنة – ارسلتُ هذا الخائن الى التوير لأُعاقبهُ العقاب الأليم

فصاحت اللادي حنة من فؤاد مجروح وسقطت مغشياً عليها

فهزَّ الملك رأسه وقال — لم يبقَ عندي شك في انك يا دوغلاس قد خدعتني هذه الليلة كثيرًا وحاولتَ ان تموّه عليَّ الحقيقة بكل ما وسعك من اساليب الكذب والاحتيال . ولكني قد وعدتك بالعفو فلن انكث وعدي

ثم مدَّ اليه يده فقبلها اللورد صامتًا

ومشى الملك الى جهة الملكة وهو يقول للورد — انت حكيم يا دوغلاس كالحية ولكنك محتال كبير وخبيث ماكر ، فقد اردتَ ان تقتل هنري غوفارد ولكنك أردتَ ايضًا ان تقتل الملكة معه ، فانا أغفر لك اساءتك الى الملكة لِما قمتَ بهِ من حسن الخدمة بالقبض على غوفارد ، ولكن اياك ان تعود الى مثل هذه الافتراءات على الملكة مرة اخرى ، لانك حالما تحاول مثل ذلك ولو باشارة صغيرة او ابتسامة خفيفة تفقد حياتك ، لاني لا اريد ان توغر صدري على الملكة بشيء بعد الان ، وانا أُقسم لك أن أنتقم منك شرَّ انتقام اذا بدا منك شيء من ذلك . اما اللادي حنة فلا نعاقبها على هذا الاثم الكبير . نعم انها اساءت الى زوجتنا الشريفة اساءة لا تُغتفر ، ولكنها لم تقم بتمثيل هذا الدور الا عملاً باوامرك ، وقد كان من نتيجة هذا التمثيل القضاء على هنري غوفارد الخائن ، كما اننا لا نريد ان نكتشف اسرار قلبها في علاقتها بهنري غوفارد ، فندع هذا الامر لله العالم بخفايا القلوب

وكان الملك قد وصل الى حيث كانت الملكة ، فسمعت كلامه الاخير وتقدمت اليه وقالت برزانتها المعهودة — ألا يليق بي يا زوجي ومولاي ان أسأل اللادي حنة كيف تجاسرت ان تأتي الي هنا في هذا اللباس الذي يمثلني تمامًا ؟ وأسألها ان تذكر لي اسم هذا الدواء العجيب

الذي شفاها هذه الليلة بمثل هذه السرعة ؟ ان هذه الفتاة قد استأذنتني هذه الليلة بالانصراف من ردهة الحفلة بحجة انحراف صحتها ، فهي اذًا انصرفت لا لترقد في سريرها طلبًا للشفاء والراحة ، بل لتجول في انحاء القصر بمثل اثوابي حتى يظنها الناس اياي وتستطيع هي بهذه الحيلة ان تحملهم على الارتياب بي واحتقاري . . اراك صامتًا ياسيدي الملك ؟ اذًا فهم قد نصبوا هذه الاشراك الشيطانية للايقاع بي ، ولولا صديقي المخلص الامين يوحنا هيود الذي جاء بي الى هنا لإزهاق الباطل لقُضي عليَّ القضاء المبرم واصابني ما أصاب اللورد هنري غوفارد

فضحك الملك وألقى يده على كتف يوحنا وقال — انتَ اذًا القيتَ قليلاً من النور على هذه الظلمة الحالكة ! حقًّا قد ادرك الاحمق ما عجز عن ادراكه الحكماء !

فقال يوحنا — كثيرون يا سيدي يدَّعون الحكمة والعقل وما هم في الحقيقة الا مجانين وحمقى . وكثيرون يدَّعون الجنون والحمق ليكونوا حكماء حقيقيين في هذا العالم المملوء رجاسةً وسخافةً

فتنهد الملك وقال للملكة — انتِ مصيبة في قولكِ يا عزيزتي كاترينا . فقد كادت هذه الليلة تكون شؤمًا ووبالاً عليكِ لولا عناية الله والمهرّج ، فكلاهما انقذاكِ وأنقذاني من شرّ النتائج ولكليهما الشكر الحميم على ذلك . وحسنًا تفعلين يا عزيزتي اذا انتِ تنزهتِ عن دسائس هذه الليلة ولم تبحثي كثيرًا عن اسرارها . ان حضوركِ الى هنا في مثل هذا الهزيع من الليل دليلٌ على شجاعتكِ وسأذكر ذلك كل حين . اما الان فهيا بنا نخرج من هنا . دعيني أستند على ذراعكِ وأنظر الى وجهك الجميل الذي لا سبيل

للخوف او تبكيت الضمير اليه . هيا بنا يا حبيبتي فانتِ وحدكِ تشيعيني هذه الليلة وبكِ وحدكِ اريد ان أثق وأكون سعيداً محبوراً

فدنا المهرّج من الملك وقال — لا بل انا اساعدها في تشييعك لانك ثقيل الجسم بطيء الحركة ولا قِبَل للملكة ان تسير بك وحدها ، فاستند عليّ ايضاً

وقالت الملكة — ولكنْ لي طلباً واحداً اريد ان اعرضه عليك يا سيدي الحبيب قبل ان نخرج من هنا ، فهل تعدني بتتميمه ؟

قال — لكِ ما تريدين يا سيدة النساء

قالت — اريد ان اعزل اللادي حنة عن وظيفتها في خدمتي ، وهذا كل ما أطلبه منك

قال — انها معزولة من هذه الساعة ولكِ ان تختاري غداً سواها

ثم خرج الملك مستنداً على ذراع الملكة من جهة وذراع يوحنا هيود من جهة اخرى . ولبث اللورد دوغلاس بعد خروجهم واقفاً في مكانه وهو يصرّ بأسنانه ويرتجف من شدة الغضب ويقول في نفسهِ : لقد فشلتُ هذه المرة ايضاً وقهرتني هذه المرأة . ولكنني سأدبر الحيلة مرة اخرى احسن تدبير فأسحقها وأنتقم لنفسي شرّ انتقام

وكانت اللادي حنة بعد خروج الملك من الردهة قد نهضت من مكانها فدنت من والدها وهي تضطرب وترتعش وقالت له برباطة جاش — ان هنري غوفارد قد سُجن فيجب ان يخرج من سجنه كما وعدتني والا فاني أُقسم بالله ان اشكوك يا والدي الى الملك وأُفشي جميع اسرارك ودسائسك

فنظر اليها اللورد بحزن وقال – سأحقق آمالكِ وأساعدك في انقاذ هنري من السجن بشرط ان تساعديني انتِ ايضاً على إهلاك الملكة

قالت – أنقذ هنري غوفارد وانا اعاهدك على الاخلاص في خدمة مآربك وأكتب عهداً بدم قلبي اني مستعدة ان أسلّم نفسي للشيطان اذا اقتضى الامر ذلك ، ولا اطلب منك في مقابلة خدمتي الا انقاذ حبيبي من السجن والا فدعني اموت الى جانبه

قال – انك لا تموتين فطيبي نفساً لانكِ ستصبحين بعد قليل زوجة لهنري الثامن بعد ان تدوسي كاترينا بارّ بقدميكِ

الفصل الحادي والثلاثون

خيبة الامل

كان البرلمان الانكليزي في عهد هنري الثامن في منتهى الضعف لا يستطيع ان يخالف للملك امراً او اشارةً . فلما حُوِّلت قضية اللورد هنري غوفارد اليه اضطرّ الى اتّهامه بالخيانة والى الحكم عليه بالموت . وقد استند المجلس في حكمه على ما قدّمتهُ دوقة نورفولك وابنتها دوقة ريشموند من التهم كقولهما ان اللورد كان يشكو كثرة المظالم في المملكة وسفك دماء الابرياء وانه قد اتخذ كأبيه شعار ملوك الانكليز شعاراً له

اتخذ البرلمان هذه التهم التافهة حجّةً على اللورد هنري غوفارد وأصدر قراراً بإعدامه وأيّد الملك هذا القرار بتوقيعه وأخذ السجّانون في التوير يعدّون النطع لذلك

وكان اللورد هنري غوفارد قبل اليوم المضروب لإعدامه جالساً في سجنهِ منفرداً ينتظر منيتهُ وقد تجرَّد عن العالم وهمومه فرتب اموره وكتب وصيتهُ الاخيرة وكتب الى امهِ واخته انه يغفر لهما وشايتهما وكتب الى والده يعزّيه ويشجِّعه على احتمال هذه المصيبة بصبر وسأله ان لا يستسلم للاحزان لان الموت انما كان ضالتهُ المنشودة والقبر ملجأه الوحيد في كوارث هذه الحياة

تأكد اللورد هنري ان الحياة لا تستطيع ان تحقِّق آماله بخلاف الموت فانه سيجمعه بمحبوبته . ولذلك كان وادعاً مستريحاً ينتظر هذا الموت لينجو من عذابات الحياة ويدخل في حياة جديدة مع جيرالدينا

سمع اللورد جرس البرج الكبير يدق الساعات فكان يفرح لمرور كل ساعة لان ذلك يدنيه من لقاء الحبيبة

وبينا هو لاهٍ بافكاره فُتح باب سجنه ودخل السجَّان يحمل مصباحاً . وكان هنري قد قضى ستة ايام في سجنه محروماً من النور . واما اليوم فقد صدر امر الملك بانارة سجنه وتتميم جميع مطالبه ومشتهياته قبل حلول القضاء

غير ان غوفارد لم يطلب شيئاً في ليلتهِ الاخيرة الا اطفاء النور . فأطفأه السجان وخرج ، لكنهُ لم يقفل الباب بل تركهُ مفتوحاً قليلاً ، فلم ينتبه اللورد هنري الى ذلك ، وسيَّان عنده فتح الباب او إقفاله ، لانه لم يهتم بالحياة ولم يفكّر في الفرار من السجن ، بل كانت كل افكاره منصرفة الى الفرار من الحياة . وكانت ظلمة الليل تساعده على الانقطاع الى التأمل بحبيبتهِ جيرالدينا ، فانطرح على كرسيه وغاص في لجة التأملات . ولم يلبث ان تصوَّر نفسهُ جالساً عند قدمي جيرالدينا يسمع صوتها العذب ويشرب

كلماتها الساحرة . ثم تجسّم هذا التصوُّر في مخيّلتهِ فلبث حيناً في تلك الحالة وهو مغمض العينين وافكاره سابحة في عالَم الخيال

وانه لكذلك اذ فُتح الباب بهدوء وكأنَّ شبحاً مشى في الغرفة فلم يبصره هنري لانه لم يبصر وقتئذٍ الا محبوبتهُ جيرالدينا وقد بسط يديه لاستقبالها . ثم صاح صيحة الفرح لان احلامه تحققت وقد لمس محبوبته بيديه وشعر بانفاسها الحارَّة ، فضمَّها الى صدره وقبّلها في شفتيها

هل كان ذلك حقيقةً ، ام هي اضغاث احلام قد جسمت له الخيال حقيقةً ؟

ذُعر اللورد هنري لهذا الفكر ، فجثا على ركبتيهِ امام محبوبته وقال لها بصوت يرتعش من الخوف والحب — اشفقي عليَّ يا جيرالدينا وقولي لي أأنتِ هي جيرالدينا زوجة الملك هنري الثامن ؟ أأنتِ هي المرأة التي أحببتُها وعبدتُها والتي أضمُّها الان الى صدري وأُقبّل قدميها ؟ او ان ذلك حلم او مسٌّ من الجنون ؟

فقال الشبح — بل هي الحقيقة بعينها . فانا هي جيرالدينا . انا هي المرأة التي أحببتَها وأقسمتَ لها على الحب الى الابد . أُذكر يا هنري انك قد أقسمتَ ان تكون لي دون سواي كما اني بجملتي لك . وها قد جئتُ الان اطالبك بحقي

قال — نعم وقد بررتُ بقسمي . فقد كانت حياتي كلها لكِ . وهذه الساعات القليلة الباقية منها هي لكِ ايضاً

فضمتهُ جيرالدينا الى صدرها وعانقتهُ شديداً . وكانت دموعها تتدفق من عينيها على وجه هنري فيشعر بحرارتها ويزداد اعجاباً ورغبةً في الحياة ليظلَّ بازائها

وبعد صمت قليل قالت جير الدينا — انك لا تموت يا هنري بل يجب ان تعيش لأعيش انا ايضاً والاَّ فاني أموت حزناً . ألا تشعر يا عزيزي بمقدار حبي لك ؟ ألا تعلم ان حياتك هي حياتي وموتك هو موتي ؟

فأسند هنري رأسهُ الى كتفها وقال — أتذكرين يا جير الدينا اول اجتماع أُتيح لنا ؟ أتذكرين كيف اتحدت اذ ذاك ضربات قلبينا وكيف اتحدت شفاهنا في قبلة واحدة . أتذكرين الاقسام التي أقسمها كلٌّ منا للآخر ان لا نفترق في الحياة والموت ؟ أتذكرين كل ذلك ايتها المفدَّاة بالروح ؟

قالت — نعم اني أذكر كل ذلك . ولكنك لا تموت الان ، فيجب ان تحيا لي وأن أحيا لك ، ويجب ان تكون حياة كلٍّ منا وقفاً على الآخر كما أقسمنا . أتذكر هذه الاقسام ؟

قال — نعم أذكرها . ولكني عاجز عن القيام بها بعد هذه الليلة ، فقد اصبحت ساعات حياتي معدودة . ألا تسمعين صوت الفؤوس والمطارق في باحة السجن ؟ انهم يجهّزون لي آلة الاعدام ، فقد قُضي الامر

قالت — اذا كان الامر كما تقول فستكون آلة الاعدام هذه لك ولي ، والفأس المعدَّة لرأسك ستصرعني ايضاً ، لاني لا أُريد الحياة بعدك . اما اذا احييتَ الحياة فاني احيا معك

قال — ولكن لا رأي لي في الامر ايتها العزيزة ، فموتي محتَّم

قالت — ليس الامر كما تقول ، فقد تهيأت لنا وسائل الفرار وجُهِزت كل معدَّاته . اني قد اتيتُ اليك الان ومعي خاتم الملك فانفتحت في وجهي ابواب التوير ، وتمكنتُ بقوة الذهب من رشو السجَّان واستمالتهِ

فلا يعترضك متى خرجتَ معي من هنا ، فنسير في دهاليز سرّية اعرفها ونتجو بانفسنا من هذا السجن المخيف الى شاطئ البحر حيث ينتظرنا قارب ينقلنا الى سفينة راسية في الميناء لتقلّنا الى بلاد اخرى . هيا بنا ايها العزيز لان الوقت ثمين . ضع يدك في يدي ولنغادر هذا السجن على عجل

ثم ضمتهُ الى صدرها فهمس في اذنها قائلاً — اصبتِ ، ان حياتي هي لكِ فهيا بنا

ثم حملها بين يديه وخرج . ولكنه لم يجتز غير مسافة يسيرة في بعض الدهاليز حتى تراجع الى الوراء مذعورًا . وذلك انه رأى هناك شرذمة من الجنود قد تقلّدوا اسلحتهم وفي طليعتهم قومندان السجن ومن ورائهِ بعض الخَدَم يحملون شموعًا ومصابيح

فصاحت جيرالدينا صيحة هائلة وأسرعت فسترت وجهها بنقابها الثقيل وكان قد أُزيح عن وجهها في اثناء عَدْوها وهي على ذراعي حبيبها

وصاح هنري ايضاً ، لا خوفاً من الجنود والانوار ، بل لانه ابصر وجه جيرالدينا قبل ان تمكنت من الاستتار بالنقاب . فجحظت عيناه ووقف كمن هبطت على رأسهِ صاعقة . وقد خُيّل اليه انه يرى بازائهِ وجهاً غريباً ، وان هذا الرأس المستند الان الى كتفه ليس هو رأس الملكة حبيبته . فاضطربت اوصاله وكاد يجنّ

واشار قومندان السجن الى جنوده فساروا بالانوار الى الغرفة التي كان فيها اللورد هنري . وتقدم القدمندان فأخذ بيد السجين وعاد به في اثر الجنود . فسار اللورد معه بكل رضىً وارتياح وقد جرّ معه جيرالدينا ايضاً وهو لا يزال ممسكاً بيدها . وهكذا عادا الى الغرفة التي خرجا منها

بتلك الآمال الباهرة . فأمر القومندان جنوده بالانصراف ثم قال — ايها اللورد انني جئتك بهذه الانوار عملاً بامر الملك ، فقد علم جلالتهُ بالحيلة التى دبّرها بعض الناس لإخراجك من السجن . ظنّ هؤلاء الناس انهم يخدعون الملك ولكنهم لم يخدعوا الا انفسهم. فقد تمكّن احد اللوردات المقرَّبين الى الملك من الاحتيال على جلالتهِ فأخذ خاتمه ليأتي بنفسه الى السجن لبعض شؤون مهمّة . وكان الملك قد علم اتفاقاً بان امرأةً ستأتي الى هنا بدلاً من هذا اللورد لانقاذك فاحتاط للامر

ثم التفت القومندان الى « جيرالدينا » وقال — وانتِ ايتها اللادي قد وقعتِ في شرّ عملك . ان السجّان الذي تظنين انكِ تمكنتِ من استمالتهِ بالمال لم يكن الا اميناً في خدمتهِ للملك، فقد اطلعني على الخطة التي عوّلتِ عليها ، فأمرتُهُ بان يظهر كل طاعة وانقياد لكِ . اما وقد انكشف كل شيء ولم يبقَ في امكانكِ انقاذ اللورد فانا اسير في خدمتكِ اذا امرتِ الى السفينة التي تنتظركِ في الميناء ولا يجترئ احد ان يعترضكِ . سافري وحدكِ الى حيث شئتِ لان اللورد باقٍ هنا بأمر الملك

وعاد القومندان فالتفت الى غوفارد قائلاً — واعلم يا سيدي اللورد ان الليل قد اوشك ان ينتهي وان هذه الليلة هي الاخيرة من حياتك . وقد امرني الملك ان لا امنع هذه السيدة من البقاء في غرفتك الى الصباح بشرط ان تبقى الغرفة مُنارةً بالمصابيح . وهذا هو امر الملك بالحرف الواحد : « قل للورد هنري غوفارد انني اسمح له ان يحب معشوقته جيرالدينا بقدر ما يشاء ولكنه يجب ان يفتح عينيه ليبصرها جيداً. ولذلك يجب ان يُعطى نوراً . ويجب ان يظلّ هذا النور في سجنه ما دامت

جير الدينا معه لئلا يلتبس عليه الامر في ظلمة الليل فلا يقدر ان يميّز بين الممثلة الخائنة والملكة » . هذا ما قاله الملك يا سيدي اللورد . فهل تأمر ان تبقى هذه السيدة معك في النور او ان تنصرف عنك ونأخذ المصباح ؟

فزفر هنري زفرة محرقة وقال — بل دعها هنا وليبقَ النور ايضاً لاني في امسّ الحاجة اليه . وكل ما اريده منك ياحضرة القومندان ان تتركنا وحدنا الان

فحيّا القومندان وخرج

وبقي اللورد هنري و « جير الدينا » واقفين احدهما تجاه الآخر وهما لا ينبسان ببنت شفة . وكان قلباهما يخفقان بشدة واعضاؤهما ترتجف . و « جير الدينا » تتنهَّد خوفاً وجزعاً وقد اطرقت برأسها الى الارض

كانت تلك الدقيقة اشدّ هولاً على « جير الدينا » من كل هول . ولو خُيّرت بين ان تجود بنفسها او تطفئ النور الساطع في الغرفة وتعود فتلتحف بالظلام لاختارت الموت حالاً فهو اهون عليها من ذلك العذاب الاليم

ولم يكن هنري اقلّ اضطراباً منها وقد تمنى لو قُضي عليه قبل ان تصدع قلبه آلام الخيبة ومرارة هذه الدقائق الاخيرة من حياته . كان اللورد يسير بقدم ثابتة الى الموت ونفسه مفعمة بالآمال اما الان فرأى في الموت موتاً آخر هو اشدّ على نفسه وقلبه من كل موت . . فدنا من « جير الدينا » وقد ارتسم الغضب في وجهه ومدَّ يده يريد ان يرفع النقاب عن وجهها . فذعرت « جير الدينا » وكادت تسقط الى الارض متلاشية

فقال لها بلهجة الآمر — ارفعي هذا النقاب عن وجهكِ

فبسطت « جيرالدينا » يديها تستغيث بهِ وتقول — اشفق عليّ ياهنري فازداد هنري اشتعالاً ومدَّ يده فنزع النقاب عن وجهها وتفرَّس فيها ثم تراجع عنها كمن لدغته افعى سامة وصاح صيحة مخيفة وستر وجهه بيديه

رأى هنري امامه اللادي حنة دوغلاس .. وكفى بذلك قضآءً على آماله ومرارةً لنفسهِ وجحيماً لقلبه ..

وكانت حنة واقفة وقد علا الاصفرار محيَّاها وجمد الدم في قلبها وكاد اليأس يقتلها . انها قد احبَّت هنري غوفارد اكثر من نفسها وكانت تريد ان تنقذه من السجن وتطلعهُ بعد ذلك على سر قلبها وهي تؤمل ان يصفح لها ويحبها كما احبَّ « جيرالدينا » . ان حنة قد احتاطت للامر بكل حذق ومهارة ومثَّلت دورها احسن تمثيل . ولما حُكم على حبيبها بالاعدام اضطرَّت والدها ان يساعدها في السعي لانقاذه فاحتال على الملك وأخذ خاتمه منه .. وبعد كل هذه المساعي والاتعاب لم تستفد حنة شيئاً وقد اكتشف حبيبها سرَّها قبل ان يتسنَّى لها الافراج عنه فبماذا يكافئها الان ؟

وبينا حنة في مثل هذه التأملات رفع اللورد رأسه ونظر اليها . فوقعت امامه على ركبتيها وقالت وهي ترتعش والدموع تسيل من مآقيها — انا هي جيرالدينا يا هنري . انا هي المرأة التي أحببتها انت وكنتَ تقرأ كتبها بأعظم لذة وتُقسم لها انك تحب عقلها اكثر من وجهها . ألا تذكر ياهنري أقسامك ؟ ألا تذكر قولك لي انك تحبني فلا يثنيك شيء عن هذا الحب مهما طرأ عليّ من التغيير الخارجي ؟ ألا تذكر عندما سألتُك ذات يوم — هل تبقى على هواي اذا القى الله فجأةً نقاباً على وجهي ؟ — وكان جوابك ان هواي قد تملَّك مهجتك وان لا قوة من القوى العالمية تستطيع ان تنزع

حبي من قلبك لانك احببتني لاجل نفسي وقلبي لا لاجل وجهي . وقد قلتَ لي ايضاً « ان وجهكِ سيتغيرّ واما نفسكِ وقلبكِ فلا يتغيّران وسيظلاَّن ساطعين امامي بانوارهما البهية ككتاب الوحي المفتوح » . فانا هي « جيرالدينا » . انا هي حبيبتك التي احببتَ فيها النفس والقلب وقد القى الله الان نقاباً على وجهي

كان اللورد هنري يسمع كلام حنة دوغلاس والغضب يزداد سعيراً في قلبه . ولما فرغت شعر باليأس وقد مزَّق احشاءه فجلس على كرسيّهِ وصاح كالمجنون — اهذه هي ؟ اهذه هي جيرالدينا ؟ ويلاه ماذا اصابني ؟

فوثبت حنة اليه ثم سقطت عند قدميه واخذت تقبل يديه وتقصُّ عليه حديث حبها وهي تنتحب . وقد اطلعته بين التنهد والبكاء على جميع الحيل والتدابير التي استخدمتها بارشاد والدها وانها لم تفعل كل ذلك الا مدفوعة بعوامل الحب الشديد . وها هي الان جاثية امامه تسأله الرحمة والغفران

فدفعها هنري بعنف ونهض يريد ان يهرب منها لئلا تمسَّهُ بيديها . وكان وجههُ قد اشتعل غيظاً وطار الشرر من عينيه فازداد جمالاً وهو في تلك الحالة وصار اشبه برئيس الملائكة وقد صرع التنين وداسهُ بقدميه

ثم نظر اليها بازدراء وقال — انني لن اغفر لكِ . فقد جعلتِ حياتي كلها اكذوبةً وحوَّلتِ مأساة حبي الى فصل هزلي مزعج . آه ياجيرالدينا ! اني قد احببتكِ بكل جوارحي . ولكنكِ اصبحتِ الان في نظري شبحاً مخيفاً يضطرب له قلبي وتنتفض منه اعضائي وتلعنهُ نفسي . انكِ قد سحقتِ حياتي وسلبتِ قداسة ساعاتي الاخيرة . فما انا بعد الان شهيد الحب والغرام

كما احببت ان اكون بل فريسة الازدراء والهوان كما احببت انتِ . كنتُ استعذب الموت في سبيل هواكِ يا جيرالدينا . كنتُ اودُّ ان اموت ولساني يذكر اسمكِ ويباركك ويشكركِ على السعادة التي سكبتِها في نفسي وقلبي . وكنتُ موقناً ان الموت سيدنيني منكِ ويفتح لي باب السعادة والغبطة الابدية . اما الان فقد اضمحلَّ كل أمل لي لانكِ وضعتِ السمَّ في حياتي وموتي . فلترافقكِ لعناتي الى الابد . ولتكن كلمتي الاخيرة في آخر دقيقة من حياتي لعنةً لجيرالدينا الخائنة

فانطرحت حنة على قدميه وقالت — ارحمني يا هنري . اقتلني . دسني بنعليك ولا تُطل مدة عذابي

قال — كلا . فلا رحمة للمحتالة الماكرة الخائنة التي سلبت قلبي وتسلّلت الى حبي تسلُّل اللص . انهضي واتركي هذه الغرفة لانك قد ملأتِها شراً كما ملأتِ نفسي رعباً . وكلما وقعت عيني عليك أندفع باللعنات . نعم فلترافقك اللعنة والعار يا جيرالدينا . اني العن الساعة التي عرفتك فيها . وألعن القبلات التي رسمتُها على شفتيك ودموع الفرح التي سكبتها على صدركِ . اذهبي الان من امامي . اذهبي يا قاتلتي مثقّلة بشدة لعنتي لك وعيشي اذا كان في امكانك ان تعيشي مثالاً للعار والخزي

فسترت حنة وجهها وقالت — وكيف تريد ان اعيش ؟ ألم نقسم ان نموت معاً ؟ ان لعنتك لا تحلّني من قسمي . ومتى انحدرتَ انتَ الى قبركِ أقف انا — حنة دوغلاس — على حافته باكية منتحبة الى ان تفسح لي مجالاً صغيراً بجانبك فأرقد في قبركَ ولا يلبث قلبك الصخري ان يلين لدموعي فتضمني كما كنت تضمُّ جيرالدينا . . آه يا هنري ! اني ساكون في القبر

ناعمة البال ولا يكون لي وجه حنة دوغلاس — هذا الوجه الذي اودُّ ان امزّقه الان باظافري — بل اكون جير الدينا ، فأدنو من قلبك وتقول لي مرة اخرى — « اني لا احب وجهكِ وظواهركِ يا جير الدينا بل احبُّ نفسكِ وقلبكِ وعقلكِ وهي لا تتغيّر عن هواي »

قال — اصمتي ايتها الشقية اذا كنتِ لا تريدين ان أفقد عقلي . لا تؤلميني بهذه الكلمات لانها تدنسني الان كما دنّسها خداعكِ . انني لا أفسح لكِ مكانًا في قبري ولا أناديكِ باسم جير الدينا ، فانما انتِ حنة دوغلاس ، وانا أمقتكِ وألعنكِ ايتها المجرمة

وكانت طلائع الفجر قد بدأت تظهر . وسُمع صوت جرس السجن يُقرَع قرعًا محزنًا ، فقال هنري — أتسمعين يا حنة دوغلاس صوت هذا الجرس ? انه يدعوني الى الموت ، فانتِ قد دنّستِ ساعة حياتي الاخيرة . كنتُ سعيدًا حينما أحببتكِ واما الان فاني اموت آئساً حزيناً لاني أحتقركِ وأكرهكِ

فبادرت حنة اليهِ وتعلّقت بأثوابه وهي تذرف الدمع السخين وتقول بصوت متقطع — كلا كلا ، انك لا تموت . . لا يجب ان تنزل الى قبرك وعلى شفتيك اللعنة . . انا لا اقدر ان اكون قاتلتك . . وهل من العدل ان يحكموا بالاعدام على اللورد هنري غوفارد الجميل الشريف وهو لم يجنِ اثماً ? ماذا فعلتَ ايها اللورد حتى أثرتَ غضب اعدائك ? انت بريء وهم يعرفون ذلك وليس لهم ان يعاقبوك بمثل هذه القساوة لانك أحببتني !

قال — كلا فانا لم أحبّ حنة دوغلاس بل احببتُ الملكة وظننتُ

ان الحب متبادل بيننا . وهذه هي جريمتي

وما كاد اللورد يُتمّ كلامه حتى فُتِح باب الغرفة ودخل قومندان السجن ومعه كاهن وبعض غلمان من خَدمة الكنيسة ووراء الكل جاء الجلاّد مرتدياً ثوبه الاحمر ووقف خارج الباب

فقال القومندان — قد حان الوقت !

وتقدّم الكاهن فأخذ يتلو الصلوات والغلمان يحرقون البخور . وكان الجرس الكبير يقرع قرعاً متواصلاً والجماهير تزدحم في باحة السجن لتشهد حفلة الاعدام

فوقف اللورد كالمأخوذ وقد علا وجهُ الاصفرار وارتسمت عليه علائم الخوف . غير ان خوفه هذا لم يكن من الموت بل كان من الموت على هذه الصورة من الازدراء والاحتقار

ثم دنا منه الكاهن وقال — يا ولدي هنري غوفارد هل انت مستعد للموت ? هل صالحتَ ربّك وتبتَ عن خطاياك وغفرتَ لاعدائك ? هل تعترف بان موتك هو كفّارة عن آثامك وعبرة لامثالك ?

فقال هنري — اني مستعد للموت واما بقية الاسئلة فسيكون جوابي عليها لله وحده

قال — هل تقرّ بخيانتك لمولاك الملك الشريف الصالح وهل تطلب العفو والغفران منه لاجل الاهانة العظيمة التي أُوجهتَها الى شخص جلالته المقدس ?

فأرسل اللورد نظرة حادّة الى الكاهن وقال — وهل تعرف انت ما هي هذه الاهانة التي أُعاقَب عليها الان ?